جاك ديريدا وإدوارد سعيد والتأسيسُ للخطابِ ما بعدَ الكولونياليِّ من داخلِ الثقافةِ الغربيَّةِ

Jacques Derrida, Edward Said, and the establishment of postcolonial discourse from within Western culture

محمد مغناجي *

المدرسة العليا للأساتذة" آسيا جبّار" قسنطينة

moghenadji.mohamed@ensc.dz

تاريخ الإرسال: **2024-03-22** تاريخ القبول: **2024-06-27**

ملخص:

قاد تقاطع جاك دريدا وإدوارد سـعيد في موقعهما من الفكر الغربي إلى التقاطع في الحفر على اسـتراتيجياته وتعرية نظرية التمركز الغربي، وعلى الرغم من ذلك ظلت مفاهيم عديدة مثل التفكيك ونقد الاسـتشـراق والقراءة الطباقية...، جذوره، وحتّى نظرية النص تبدو من خصـائص قارات متباعدة، والحال أنها تكاد تقول بأنها جزر سـابحة في مياه واحدة، لهذا سـيحاول مقالي متابعة أهم التقاطعات بين فكر رجل فلسـطيني/ أمريكي/ عربي/مسـيحي عُرف بأنه بعدما حاز ملامح الشـرق وقسـماته، نشـأةً وثقافةً وانتماءً، راح يصـقلها بأدوات الفكر والحضـارة الغربية تكوينا واختصاصا، وبين رجل جزائري/فرنسي، يهودي / غربي ذي ثقافة شـرقية السّقيا والندى؛ رجل بقدر ما رفع عبر الكتابة وتشـييع الصـوت ومناقشـة الصـفح ألويةً للانفتاح، فإن التفكيك ظل إزميلا يشـي بإكراهات، أو رسـوبيات الغيتو والانكفاء؛ فهو على الأعراف يطارد إمكانية المستحيل، يحلم بالانفتاح منكفئا، وبالانكفاء منفتحا، يستحثنا للمعرفة والتثاقف في سياق من الهدم والاختراق... من هذا الموقع الملتبس انحدر التفكيك مفهوما مشـبعا بالانزلاق مثلما يقول المرحوم عبد الوهاب المسيري؛ لهذا يحاول مقالي إحكام الوقوف على هذا السطح لوشج أطراف المشهد، ولفت الأنظار إلى حقيقة ميلاد فكر الرجلين في سياق الخروج من الإيديولوجيا

الكلمات المفتاحية: تفكيك؛ استشراق؛ تثاقف؛ انفتاح؛ خطاب

* **المؤلف المراسل**

Abstract:

The intersection of Jacques Derrida and Edward Said in their positions in Western thought led to the intersection in excavating its strategies and exposing the roots of Western centralization. Despite this, many concepts remained, such as deconstruction, criticism of Orientalism, and classist reading..., and even the migration of theory and text seems to be characteristic of distant continents, and the situation is almost It says that they are islands swimming in one water, and for this reason my article will attempt to follow the most important intersections between the thought of a Palestinian/Arab American/Christian man who was known to have acquired the features and characteristics of the East, in terms of upbringing, culture, and affiliation, and began to refine them with the tools of Western thought and civilization in terms of composition and specialty, and an Algerian/French man." A Jew/Westernist with an Eastern culture of water and dew; a man who, through writing, spreading the voice, and discussing forgiveness, raised the banners of openness, but deconstruction remained a chisel that betrayed compulsions, or the sediments of the ghetto and isolation; he is on customs, chasing the possibility of the impossible, dreaming of being open, withdrawn, and withdrawing, open, urging us. For knowledge and acculturation in a context of demolition and penetration... From this ambiguous position, deconstruction descended into a concept full of slippage, as the late Abdel-Wahab Al-Mesiri says. This is why my article attempts to firmly stand on this surface to connect the edges of the scene, and draw attention to the fact of the birth of the thought of the two men in the context of leaving ideology.

Keywords: Deconstruction; Orientalism; acculturation; openness; discourse.

مقدمة:

مثَّل كتاب "الاستشراقُ" لإدوارد سعيد(Edward W Saïd/1935-2003) فتحا فكريا وسياسيا كبيرا في فهم الاستشراق بصورته الغربية؛ ذلك لأنه انطلق من احتمالات الغربي السياسي المفكر للحضارة العربية والعربي الإسلامي، أي لم يتحدث إدوارد سعيد عن العربي والحضارة العربية بوصفه فلسطينيا تربى في مصر، إنما حاول فهم الرؤى الخفية التي ينظر بها الغربي إلى العربي وإن أدخل شخصيته وهويته العربية في رفض مفهوم الإلغاء الواقع على العربي والفلسطيني.

هذا الكتاب الذي صدر في سنة 1978 بعد أن كتب بعد 1975 كان له الدور الكبير- حسب نظرنا- في فضح لعبة الاستشراق ومفهوم التمثل لصورة مشوهة عن العربي بحجة الذوبان السياحي في المجتمعات العربية، ونقل الحضارة والتطوّر، من جهة، ومحاولة الاكتشاف والتثاقف من جهة أخرى، بل بداعي اكتشاف نقاط الضعف للعربي، وهذا شكل من أشكال التفكيك للوصول إلى الصورة الكاملة عنه، وبعد ذلك الهيمنة الاستعمارية على كل الصُّعُدِ الثقافية والسياسية والاجتماعية والدينية والفكرية وحتى الجمالية.

لقد تقاطع كثير من المفكرين الغربيين من أصول عربية مع فكرة إدوارد سعيد ولو بطريقة غير مباشرة من خلال لعبة التفكيك هذه للوصول إلى الأنوية الحقيقية للأشياء، وهذه نظرة فلسفية للكينونة الوجودية والسياسية، ومنهم الفيلسوف جاك ديريدا(Jacques Derrida/1930-2004) فقد أحدث فلسفة للوصول إلى عمق الشيء تدعى "التفكيك "وهو تحليل الوحدات بمعزل عن بعضها لاكتشاف صورة مصغرة عنها، فكأن هذا التفكيك مجهر يلمح صغائر البنية الكلية ويفصلها عن بعضها لترى واضحة وليحسن تركيبها من جديد فيفهم حقيقة هذا الكل المركب فهما حصيفا رصينا ويستطيع التحكم فيه، بل حتّى اللغة بوصفها بنية قائمة تفسر الأشياء من خلالها حاول أن يفهم الحياة والذات بمعزل عن هذه اللغة، فهي-حسبنا-أن فهم المنظومة الكونية والسياسية واللغوية والفكرية والفلسفية لا يمكنها أن تمر إلاّ على مراحل مفككة، كما أنها تتحدّى الأصل إلى وحدات أخرى غير الأصل وهكذا تصور جاك ديريدا اللغة والفلسفة وغيرهما من المحاور الكونية، وهذا ما يفسر تقاطعه مع إدوارد سعيد ليس في مشكلة اللغة، بل في العرقية اليهودية والغربية التي من المنطق الخفي أن تفسر خارج كونهم بشرا أو عرقا متعايشا أو بصورة أخرى خارج كونهم ليسوا مذنبين ولو بغير ذنب، وهذا قدرهم، وهذه نظرة تفكيكية أيضا، فالتفكيك هنا لا يكون أبدا نظاما أو نظرية أو حتّى أفكارا ثابتة

مستقرة"2؛ فإن اعتقدت على هذا النحو دحضت نفسها بنفسها، فلذلك يسعى جاك ديريدا دائما لخلخلة الأنظمة السائدة ليعرف جغرافيا الأشياء المتعلقة بها؛ فقد سعى لهدم النظام الهيجلي(نسبة إلى الفيسلوف الألماني هيجل) اللغوي والفلسفي والجمالي كما حاول تقويض النظام اللغوي السوسيري"3 (نسبة إلى عالم اللغة السويسري الفيلسوف فرديناند دوسوسير)، ومن هنا فجاك ديريدا لا يعترف بالنظام إلاّ بوصفه عدم نظام وهو يفكك ذاته لأصغر وحدة غير منتظمة.

1- مقارنة بين كتابي الاستشراق لإدوارد سعيد والصفح لجاك ديريدا:

يجدر بنا أن نلمح إلى أن إدوارد سعيد يعترف أن هذا الكتاب "الاستشراقُ"Orientalism المفاهيم الغربيُّة للشرقِ جاء لقاء استفادة حقيقية من الغربيين أنفسهم، وشكل صورة متشابكة متكاملة لعينات غير مستهان بها من المفكرين والأدباء والمؤرخين لحضارات الشرق؛ إذ يقول في مستهل الكتاب:" قضيت سنوات عديدةً أقرأ عن الاستشراق، ولكنني كتبت معظم هذا الكتاب في العام الدراسي1975-1976، وهو العام الذي قضيته زميلا في مركز ستانفورد للدراسات العليا في العلوم السلوكية في كاليفورنيا، وقد أسعدني الحظ، في هذه المؤسسة الفريدة والكريمة، لا بالاستفادة الممتعة فحسب من عدة زملاء، بل أيضا مما تلقيته من عون من جوان وروميران، ومن كريس هوث، ومن جين كيلماير، ومن بريستونكتلر، ومن مدير المركز جاردنر لينزي"[4]، هذه دلالة على أن إدوارد سعيد توغل في

---

[2]- ينظر: نوريس كريستوفر(1989)، التفكيكية النظرية والممارسة، ترجمة: محمد حسن صبري، د ط، دار المريخ للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ص22.

[3]- ينظر: ف-زيما-بيير، (1996)، التفكيكية دراسة نقدية، تعريب: أسامة الحاج، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ص9.

[4]-ينظر: سعيد إدوارد، (1995)، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، western Conceptions of Orient. الصادرة عن دار بنجوين العالمية، ترجمة: عناني محمد، (2006)، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ص38.

المجتمع الغربي حتى عرف أسراره وسبر أغواره وصار ينطق على منطق المجتمع الغربي ويقدم-حسب نظرنا- احتمالاتٍ كثيرة نظر بها المجتمع الغربي للشرق دينا وحضارة وشعبا وعادات وفي كل مناحي الحياة.

ومن جهة أخرى نعرض مفهوما للاستشراق لنضيء جانبا للاستشراق وهو بصدد تأريخ حركة الاستشراق الإنسانية وهو منصف وموضوعي؛ إذ يقول: "كان الاستشراقُ مجالا لتطبيق ونشر العلم الحديث في الشرق لكنه جعل من الشرق ميدانا أنثروبولوجيا وإثنولوجياّ مجردا من قيمه وتاريخه، وظهر وَفق توصياته الشرقي، العربي والتركي والفارسي صورة للشهواني القاسي، أو صورة البربري الفظّ، خاصة الشمال الإفريقي، يجمع بين هذه الصور دين بسيط وبدائي ومغتصب وعدواني وهو الإسلام، وهو الدين المستجرّ للتخلف ونبذ السّوى، وعدم المصفاة مع الغرب ومع المختلفين دينيا سواء فيما تعلق بالسامية أو غيرها."[5]؛ فهذا إقرار بأن للاستشراق في أصله توصياتٍ وخلفيات سار في ركابها المستشرقون الذّين أدّوا المهمة في تشويه الإسلام والمسلمين وحتى من والاهم وحاباهم وتعامل معهم وهذا هو غرض الاستدمار الحديث الذي قام أيضا بنقل صورة سيئة عن الشرق بوصفه لغة ودينا وشعبا، بل ويبلغ هذا المنطق أكثر من ذلك؛ إذ يقول:" وكانت مسيحية القرون الوسطى قد بثّت هذه الصور، ونسجتها مخيلة تمركزها اللاّهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية حلال الحروب الصليبية"[6]، وهذا ما أراد كشفه إدوارد سعيد في فحص الغرض السِّريّ الخفي للاستشراق الذي ظاهره خير وباطنه من قبله الشر والعذاب في أغلب الأحوال، وإنها لمجدرة أن نلمع إلى "أنّ المستشرقين لم يكونوا شاكلة واحدة ولم يتبنّوا مفهوما واحدا للإسلام؛ فلقد شمل الاستشراق فئة من المستشرقين الذّين تبنّوا آراء الكنيسة الكاثوليكية وغيرها في تفسير الإسلام، كما حاول بعض منهم

[5]- ينظر: فوك يوهان، (حزيران/يونيو2001)، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتّى بداية القرن العشرين، نقله عن الألمانية: العالم عمر لطفي، الطبعة الثانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، صفحة الواجهة الأخيرة.

[6]-ينظر: المرجع نفسه.

تفسيره تفسيرا عنصريّا بينما أكّد آخرون على العوامل الاجتماعية والاقتصادية"[7] وقد طبق كثير منهم المذهب الماديّ في تفسير أبعاده فنحن -هنا-إزاء رؤى تفسيرية مختلفة، وهذا راجع لاختلاف الخلفيات الدينية والسياسية والفكرية والفلسفية في حد ذاتها، وهذا ليس لتفسير الاستشراق فقط بل هذا-حسبنا- لتفسير أي مفهوم يحوط الثقافة البشرية المختلفة في كل زمان ومكان، وتشير نصوص بعض أدباء الغرب على أنهم فهموا ألاّ معاداة من الإسلام إلى المسيحية إذا ما اعتزموا تفسير العلاقة الإنسانية تحاورا بين الأديان ونورد –هنا- رأي برناردشو في تقديم تصوره الذي استخلصه من مدارسة سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلمّ وأثر الإسلام وأبعاده الإنسانية، وأحسب أنه رأي معروف يعيد النظرة المشرقة التي غبشت وأحلكت بفعل بعض المفاهيم الاستشراقية للإسلام وهو قوله معارضا فكرة إفهام المجتمعات الغربية بأن الإسلام معادٍ للسّوى المختلفين وخاصة المسيحية الممثلّة في شخص النّبي عيسى -عليه السلام-؛ إذ السيّد المسيح متآخ مع النبي الكريم محمد -صلّى الله عليه وسلم- بل سمّى الرسول محمدا -صلّى الله عليه وسلّم- مغيث البشرية ومنقذها كما سُمّي المسيح عيسى -عليه السلام- مخلّصا عند المسيحيين؛ إذ يقول برناردشو:" لقد طبع رجال الكنيسة في القرون الوسطى دين الإسلام بطابع أسود حالك إمّا جهلا وإمّا تعصّبا، وقد كانوا –في خلفياتهم-مسوقين بعامل بُغض شخص الرسول محمّد فعندهم كان محمد عدوا للمسيح، ولقد درست سيرة محمد الرجل العجيب في رأيي أنه بعيد جدا من أن يكون عدوّا للمسيح إنما ينبغي أن يدعى "منقذ البشرية"[8]، وقد عمد كثير من المتعصبين الّذين أشار إليهم إدوارد سعيد في كتابه "الاستشراق" إلى ترجمة القرآن الكريم لغرض نقد القرآن الكريم وتشويه المفاهيم المختلفة فيه سواء كانت التّعبّدية أو العقدية أو المتعلقّة

7-ينظر: عمر فوزي فاروق، (1998)، الاستشراقُ والتاريخُ الإسلاميُّ (القرون الإسلامية الأولى)، دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الغربية، الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشميّة، ص9.

8- ينظر: العاني عبد الواحد عبد القهار عبد الله، (2001)، الاستشراق والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ص8.

بالمعاملات، ولقد باءت أغلب محاولاتهم بالفشل، وتبيّن لهم أنه أي القرآن" وعلمه ليس علما تجريديّا أو نظريّا يراد به التهويم أو التهويل، أو عزل الناس عن الحياة، وإنما هو علم موصول بالعمل لا ينفصم عن الإيمان الراسخ والأخلاق السامية والقيم النبيلة"[9]، وهو لخير البشرية كلهم؛ لأن المقياس الحقيقي فيه هو تقوى المعبود وليس من تفريق لا على أساس العرق ولا الجغرافيا ولا اللون ولا المنصب ولا المال ولا غير ذلك، وهذه نظرة أراد المستشرقون حسب إدوارد سعيد طمسها والعمل على قلبها إلى نظيرها وندّها كي يُكره القرآن الكريمُ الذي هو الشريعة الأولى للإسلام ومن بعده كل ما جاء به هذا الدين من معارف وقيم وأفكار وسلوكات، وعلى أساسه شيع في الأوساط والدواخل أن الحضارة الإسلامية الناهضة على هذا القرآن وهذا الدين ينبغي أن يُتحذَّرَ منها وهي نزّاعة إلى نبذ الآخرين إلّا إذا كانوا تحت لواء دين الإسلام، فراحوا يبرّرون حروبها وإيغالهم في الإغارات ومحاولات الهيمنة على كلّ صُعُدها، و"هناك من انبروا لمهاجمة الإسلام وحضارته بزعمه أنها ليست في الواقع إلاّ المدنية اليونانية التي أخرجت إلى النور ليس على يد العربي والمسلم بل على يد الكلدانيين والسوريين والفرس والإسبان بعدما أصبحوا مسلمين بوساطة الغزو وتأثير اللغة وهو الفيلسوف الفرنسي رينان في محاضرة له قدّمها في باريس في التاسع والعشرين من مارس سنة 1883"[10] ، وهو محسوب على المستشرقين عند بعض المنظّرين.

أمّا عند كتاب "الصفح " لجاك ديريدا فهو فلسفة خفية مستكنهة من فلسفة الفيلسوف الفرنسي فلاديمير جانكليفيتش في كتابه "الصفح" أيضا ودراسة العلاقة غير الظاهرة بين المجرم والضحية بمفهومهما الاقتصادي والسياسي والفردي والاجتماعي والديني؛ ففي

[9]-ينظر: أبو ليلة محمد، (2002)، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، دراسة نقدية تحليلية، الطبعة الأولى، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ص12.

[10]-ينظر: العاني عبد الواحد عبد القهّار عبد الله، (الاستشراق والدراسات الإسلامية)، المرجع السابق، ص15.

مقدمة الكتاب تصريح بذلك واضح، فجاك ديريدا يتجاوز مفهوم الصفح أي العفو والمغفرة الفردية عن جرم صغير كان للضحية الحق في إنفاذ العقاب أو تخلية سبيل الضحية خصوصا إذا طلب المجرم الصفح والاستصفاح من الضحية، بل" إن حصر الصفح في ثنائية الضحية والجاني ومقارنته من زاوية منطق التبادل(ضرورة استصفاح الجاني وحرية الضحية في منح الصفح أو رفضه)، لا يستقيمان ونية الصفح بما هو كذلك، إن جانكليفيتش كان حبيس الاقتصاد التقليدي والمعتاد للصفح الذي يجعله يقول باستحالة الصفح عن الجرائم النازية، نظرا لتجاوز فضائحها كل الحدود إلى أن غدت بذلك ما يستحيل جبر ضرره، وما لا يقبل الصفح، وهذا هو المأزق الذي يقف عنده جاك ديريدا، ويبحث عن مخرج منه، بالعودة إلى تعريف دقيق للصفح، يتبين أن صفح الممكن صفحه ليس صفحا بالمعنى الصحيح للكلمة، وإن واجهتنا معضلة كيفية الصفح عما لا يقبل الصفح، وحدها الإتيقا المفرطة أو المعضلية المستهدفة لجعل المستحيل ممكنا، تحفظ للصفح معناه وإمكانه"[11]، ألاَّ يتناول الكتاب –في نظرنا- المفهوم المباشر للصفح وإنما يعرض قضية مرتبطة أساسا بخصوص محرقة اليهود التي اقترفها النازي الألماني وهل هذا ذنب يغتفر في نظر الإنسانية؟ بل هل يمكن أن يهدد أحد كيان أحد بمجرد أنه يهودي أو مسيحي أو مسلم أو مختلف سياسيا.

ولقد عرض فلاديمير جانكليفيتش هذا المفهوم من منطق الحربين الطاحنتين العالميتين ومن هو الجلاد ومن هو الضحية واستثمر جاك ديريدا هذا كله في بوتقة واحدة معارضا بذلك المقولة التي تتهم اليهود بأن يبرروا وجودهم وهو سبب خطيئتهم وهذا -في حد ذاته جريمة -تحتاج الاستصفاح عنها.

لو أجرينا مقارنة بسيطة أولية للدخول إلى العمق بين كتاب إدوارد سعيد الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق وكتاب الصفح الذي هو نظرة مستقبحة لليهود مرفوضة أيضا

[11]-ينظر: ديريدا جاك، (2018)، الصّفحُ-مالا يقبل الصفح ومالا يتقادم، ترجمة: عارف مصطفى وعبد الرحيم نور الدين، الطبعة الأولى، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ص9.

لمجرد أنهم يهود وأن الصفح لمن وعمّن وهل يكون وهل لا يكون وأسئلة أخرى لوجدنا بعض التقاطعات ليس في منهج التحليل وإنما في محتوى الكتابين معا.

1.1- فلسفة الكتابين: كتابُ" الاستشراقُ":

يروم هذا الكتاب في مقدمته تثبيت مصطلح الاستشراق بالنظر إلى مصطلحين آخرين هما: الشرق والغرب؛ إذ يعرض إدوارد سعيد النظرة الحقيقية للمجتمع الأوروبي الأكثر توليدا لمصطلح الشرق وهما الفرنسيون والبريطانيون، وبعض الأوروبيين الآخرين، فيقول: "إنّ الشرق المصنوع في مخيلة الغربي هو ذلك المرتبط بالرومانس والذكريات والقصص العجيبة الفريدة،(...) أضف إلى ذلك أن الشرق قد ساعد في تحديد صورة أوروبا (أو الغرب) باعتباره الصورة المضادة، والفكرة المضادة والشخصية والخبرة المضادة، ومع ذلك فلا يعتبر أي جانب من جوانب هذا الشرق محض خيال، فالشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية والثقافة الأوربية، والاستشراق يعبر عن هذا الجانب ويمثله ثقافيا، بل وفكريا، باعتبار الاستشراق أسلوبا للخطاب، أي أسلوبا للتفكير والخطاب"[12]، ومن هنا نرى أن مفهوم ادوارد سعيد النقدي للغرب على أن الشرق جزء بشري ليس خليطا إنسانيا مشتركا ينم عن فهم لفكرة الإقصاء التي جاءت بها المذاهب الكولونيالية والاستعمارية، بل الحقيقة عكس ذلك، وهذا ما قرره في آخر كتابه وهو اللباب الكامن في نظرية الاستشراق وهو تلخيصه لنظرته وجهده في هذا الكتاب، إذ يقول: "ولقد اهتممت اهتماما خاصا بالتوسع في قضايا ما بعد الاستعمار حتى أصبحت تشمل مشكلات الجغرافيا، فما كتاب الاستشراق -على أية حال- إلا دراسة بنيت على إعادة النظر في المقولة التي ظل الناس يؤمنون بها على مر القرون ألا وهي وجود هوة من المحال تخطيها تفصل بين الشرق والغرب" ويبرر هذا الكلام مع استدراك أن هناك جزءًا بشريا له صدارة تأسيسية ما في العلاقات ما بين البشر بقوله: "ولم يكن هدفي -كما سبق لي أن قلت- إنكار الاختلافات القومية

[12]-ينظر: سعيد إدوارد، (الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، .western Conceptions of Orient)، المرجع السابق، ص43-44.

والثقافية في العلاقات ما بين البشر-بقدر ما كان يتمثل في الطعن في مقولة إن الاختلاف يتضمن العداء -وهنا يتداخل مع فكرة الصفح التي جاء بها جاك ديريدا- ويتضمن مجموعة من العناصر الجوهرية المجسدة المجمدة المتعارضة"[13]، ومن خلال الصور التي شكلها إدوارد سعيد حول الاستشراق من داخل الغرب وأوروبا نستوضح بعض ملامحه الإبستمولوجية أنه خطاب وهو موضوع معرفة بينما يظل موضوعه هو "الشرق""[14]، والحديث عنه.

2.1- كتابُ "الصَّفْحُ":

قبل الحديث عن مفهومها الفلسفي ومحمولها السياسي يحسن بنا أن نذكر معناها اللغوي ودلالاتها أيضا في القرآن الكريم بوصف القرآن العظيم يمنح المعنى الدقيق للكلمات فالصفح هو العفو والمسامحة، وفي القرآن أكد هذا المعنى الآية الكريمة" الخامسة والثمانون" من سورة الحجر؛ إذ يقول عَزَّ من قائل:" وما خلقنا السَّمَاوَاتِ والأرضَ وما بينهما إلاّ بالحقِّ وإنّ السَّاعة لآتيةٌ فاصفحِ الصَّفحَ الجميلْ"(الحجر/85)"[15]؛ أي فاعف-أيها الرسول-عن المشركين، واصفح عنهم وتجاوز عمّا يفعلونه، وهذا لأنَّ المشركين من جهة لا قدرة لهم على الاصطبار على العذاب، ومن جهة فما خلق السماوات والأرض إلا بالحق أي بالعدل ودون ،ظلم فما للرسول -صلّى الله عليه وسلمّ -إلاّ أن يتجاوز عن أخطائهم، وهذا المعنى متساوق مع المعنى العام الذي تشمله كلمة الصفح في كل السياقات واللغات والمفاهيم الفلسفية والسياسية.

---

[13]-ينظر: سعيد إدوارد، (الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، .western Conceptions of Orient)، المرجع السّابق، ص531.

[14]-ينظر: يفوت سالم، (1989)، حفريات الاستشراق(في نقد"العقل" الاستشراقي)، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ص8.

[15]- القرآن الكريم: كلمات القرآن تفسير وبيان على هامش القرآن الكريم مع فهرس مواضيع القرآن، برواية ورش عن نافع، (1429هـ)، الطبعة التاسعة، دار المعرفة. دمشق، سورية، ص266.

تناول كتاب الصفح لجاك ديريدا فلسفة متناقضة في المحور الإنساني الكلي المتربع على فكرة الصفح على شيء ليس قابلا للصفح من جهة ومن بيده الصفح؛ أي هل هو إلهي أم بشري؟ وما حدود ذلك؟ ومن جهة أخرى فكرة الصفح عن حقيقة الوجود كيهودي فهي فكرة غير قابلة للتقادم والصفح مع كل التحسين والإثراء والتغيير والمشاركة، وهو مواجهة البشر وجها لوجه في النازيين الهتلريّين مقابل اليهود وهما طبقتان بشريتان من يظن نفسه أعلى ومن يخال الآخر أدنى وما عدالة ذلك وتحققه للطرفين؟؛ فنسوق رأي المستشرق يوهان فوكJohann Fuck (1894-1974) في وجوب الاعتدال في فهم مسائل الاستشراق أو الغرض منه في المساواة بين البشر والشعوب فيقول:" فليس من العدل أن ننظر نظرة متجهمة، ونأخذ الكل بجريرة البعض، سواء ما كان بدافع التعصب الديني، أو الطمع الاستعماري، أو الغلو المنهجي"[16]؛ ففلسفة الكتاب -من وجهة نظرنا- ننصّها على لسان جاك ديريدا نفسه في شرح هذا المفهوم في هذه الفقرة التي سنعلق عليها ونضع عليها ديباجة بما يتواءم والنظرة الاستعمارية التي تداخلت مع مفهوم الاختلاف بعداء لإدوارد سعيد؛ إذ يقول جاك ديريدا:" لدينا هنا حركتان متعارضتان ومتكاملتان، يحملهما اللفظ نفسه، "ما لا يقبل التكفير"(نحن مدعوون هنا إلى تاريخ هذه الكلمة برمته، وتاريخ مفهوم التكفيري: ماذا يعني فعل كفّر؟:): كما لو أن النازيين كانوا قد تصرفوا بكيفية هي نفسها لا تقبل التكفير، وراء كل صفح ممكن، بسبب تعاملهم مع وجود ضحيتهم اليهودي، كما لو كان جريمة لا تقبل التكفير(الوجود كيهودي لا يقبل الصفح) إذا ما وضع في الحسبان حالتي كلمة "ما لا يقبل التكفير" المذكورتين."[17]، فمن هنا يتبدى لنا أن المفهوم الذي طرحه جاك ديريدا مفهوم واسع وله محمولات عديدة، وليس ينتهي عند المعنى اللغوي القاموسي، وقد

[16]-ينظر: فوك يوهان، (تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتّى بداية القرن العشرين) المرجع السابق، ص10.

[17]-ينظر: ديريدا جاك، (الصّفحُ-مالا يقبل الصفح ومالا يتقادم) المرجع السابق، ص65.

يشمل هذا المفهوم حتى الحركات الاستدمارية الغربية التي جاءت مبشرة بعذاب أليم للشعوب العربية، وباحتلال شديد القسوة لمقدساتها وأعرافها وتقاليدها، ومحمياتها، وبالتالي ثقافتها ونتاجها الإبداعي المعنوي والمادي بوصف الثقافة" ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات والعادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع"[18]، فما بالكم إذا كانت ثقافة مجتمع كامل له إحداثياته التاريخية الماضوية والمعاصرة والمستقبلية وتأثيره إما إيجابا أو سلبا في الشعوب الأخرى من بني جنسه.

[18]-ينظر: مجموعة من الكتّاب،(1997)، نظرية الثقافة، ترجمة: علي سيد الصاوي، مراجعة: الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة: سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون –الكويت، صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني(1923-1990)، العدد223، يوليو 1997، ص9.

الخاتمة:

يحسن بنا القول -بعد عرضنا لهذا الموضوع- وهو شبه مقارنة بين كتابي الاستشراق لإدوارد سعيد والصفح-ما لا يقبل الصفح وما لا يتقادم لجاك ديريدا أنهما التقيا في كثير من النقاط المعرفية التي لها شحنات سياسية وإنسانية، من حيث إن كتاب الاستشراق فضح النوايا المبيّتة الرؤية الغربية في الاستلاء على الشعوب العربية والشرقية مع أنها قدمت الاستشراق على أنه سياحة إنسانية واكتشاف لخيرات الشرق وحضاراته القديمة والحديثة، ليس في مضمار الأدب فقط، بل حتّى في الفنون وغيرها، وهي رؤية مكتنزة بالنزعة الاستعمارية، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فيما يخص كتاب الصفح فقد رفض -ضمنيا- المنظور الذي يرى به اليهود في تاريخ البشرية من ناحية الدين والناحية الاجتماعية، وقدم تورية بلاغية لمصطلح الصفح، فهو ذو محمولين مختلفين متناقضين يبدو للوهلة الأولى مفهوما واحدا وهو المغفرة والعفو ولكنه يحمل الضد منه، فهو عدم الغفران لليهودي حياته وسلوكه ووجوده كاملا، وبذلك رفض المحرقة التي حدثت في الحرب العالمية على اليهود وقتلهم؛ لأنهم شؤم البشرية وفسادها، وهذا أيضا لا يخلو من شحنة امتهان شعب لتوهم أنهم فسدة في الأرض وظلمة، وهذه تصورات غير مقبولة، وإن عرضت في سياقات فلسفية تتطلب عقلا حصيفا ليفك مغزاها.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم: كلمات القرآن تفسير وبيان على هامش القرآن الكريم مع فهرس مواضيع القرآن، برواية ورش عن نافع، (1429ه)، الطبعة التاسعة، دار المعرفة. دمشق، سورية.

1- أبو ليلة، محمد محمد، (2002)، القرآن الكريم من المنظور الاستشراقيّ دراسة نقدية تحليليّة، الطبعة الأولى، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر.

2- دريدا، جاك، (2018)، الصفح- مالا يقبل الصفح ومالا يتقادم، ترجمة: عارف مصطفى،و عبد الرحيم نور الدين، الطبعة الأولى، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا.

3- يفوت، سالم، (1989)، حفريات الاستشراق(في نقد"العقل" الاستشراقي)، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.

4- مجموعة من الكتاب، (1997)، نظرية الثقافة، ترجمة: علي سيد الصاوي، مراجعة: الفاروق زكي يونس، عالم المعرفة: سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون –الكويت، صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني(1923-1990)، العدد223، يوليو 1997.

5- نوريس، كريستوفر، (1989)، التفكيكيّة النظرية والممارسة، ترجمة: محمد حسن، صبري، د ط، الرياض، دار المريخ للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية.

6- سعيد، إدوارد، (1995)، الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق، Edward Saïd Orientalism western Conceptions of Orient. 1995 2008، (1995)، الصادرة عن دار بنجوين العالمية، ترجمة: عناني، محمد، (2006)، الطبعة الأولى، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

7- العاني، عبد الواحد عبد القهّار عبد الله، (2001)، الاستشراق والدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأولى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن.

8- عمر فوزي، فاروق، (1998)، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى) دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية، الطبعة الأولى، الأهلية للنشر والتوزيع، عمّان، المملكة الأردنية الهاشميّة.

9- فوك، يوهان، (حزيران/يونيو2001)، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتّى بداية القرن العشرين، نقله عن الألمانية: العالم، عمر لطفي، الطبعة الثانية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان.

10- ف-زيما، بيير، (1996)، التفكيكية دراسة نقدية، تعريب: أسامة الحاج، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.